كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية في تراث الإمام عبد القاهر

(دراسة في المنهج والتطبيق)

إعداد

د/ناصر راضي الزهري إبراهيم

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بأسيوط
أستاذ البلاغة والنقد المشارك في كلية الآداب والعلوم بوادي الدواسر
جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

(العدد الرابع والثلاثون – الجزء الثالث ٢٠١٥م)

كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية في تراث الإمام عبد القاهر

(دراسة في المنهج والتطبيق)

إعداد

د/ ناصر راضي الزهري إبراهيم

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بأسيوط – جامعة الأزهر
أستاذ البلاغة والنقد المشارك في كلية الآداب والعلوم بوادي الدواسر
جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

تم دعم هذا المشروع
بواسطة عمادة البحث العلمي
بجامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز
من خلال المقترح البحثي رقم ١٧٣٩/ ٠٢/ ٢٠١٤م

(العدد الرابع والثلاثون – الجزء الثالث ٢٠١٥م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله عدد خلقه ورضا نفسه ومداد كلماته ، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد

فقد دارت حول الإمام عبد القاهر دراسات كثيرة تنوعت كمًا ،وكيفًا تعرَّض بعضها لتراثه النحوي ،وبعضها لتراثه البلاغي ، وبعضها لتراثه النقدي كما تناولت حياته ومؤلفاته ، وجهوده ، وآراءه .

فإن عبقرية الإمام عبد القاهر الفذة في تناول القضايا اللغوية عامة والبلاغية خاصة جعلته قبلة الباحثين والدارسين فقد درات حوله دراسات متعددة عالجت كثيرًا من القضايا التي تتعلق بتراثه وحياته ، وهذه الدراسة تسد ثغرة مهمة في الدراسات البلاغية التي تتعلق بتراث الإمام عبد القاهر .

فهي تسعى إلى دراسة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي حللها الإمام لتلقي الضوء على القضايا التي عالجها ، والجوانب التي أبرزها تحليل الإمام من جهة وللوقوف على منهجه في التحليل والاستشهاد من جهة أخرى .

فتظهر من الجهة الأولى العبقرية الألمعية للإمام في استخراج فرائد البلاغة القرآنية والنبوية ودقائق النظم فيهما .

ويبدو في الجهة الثانية المنهج الذي سلكه الإمام في التعامل مع بلاغة القرآن والسنة النبوية بما يمكن أن يكون طريقًا مميزًا للباحثين في البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية .

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف منها :

الوقوف على التحليل الفذ للإمام عبد القاهر للآيات القرآنية والحديث النبوي فيما ورد في مؤلفات الإمام عبد القاهر البلاغية.

الوقوف على القضايا البلاغية والنقدية التي عرض لها الإمام عبد القاهر وما يراه فيها .

عرض جانب في غاية الأهمية من البلاغة القرآنية والأحاديث النبوية مما تضمنته مؤلفات الإمام .

الكشف عن جانب مميز من جوانب علم الإمام عبد القاهر وجهوده في خدمة اللغة والدين .

منهجية البحث :

تقتضي طبيعة البحث القائم على الوصف والتحليل البلاغي والنقد والمقارنة استخدام عدة مناهج بحثية لتحقيق ما يسعى إليه من أهداف ؛ فيستخدم المنهج الوصفي الذي يعرض ، ويتتبع خطوات الإمام عبد القاهر وطريقته في تحليل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كما يستخدم منهج التحليل البلاغي لكشف مزايا الأسلوب ومميزاته ويستخدم المنهج المقارن ليوازن بين منهج الإمام عبد القاهر وغيره من العلماء ليكشف عن قيمة منهجه ومميزاته .

خطة البحث :

المقدمة

الفصل الأول : البلاغة القرآنية في تراث الإمام عبد القاهر .

المبحث الأول : منهج الإمام عبد القاهر في التعامل مع الشاهد القرآني .

المبحث الثاني : وقفات مع بعض الآيات القرآنية التي تناولها الإمام عبد القاهر .

الفصل الثاني : البلاغة النبوية في تراث الإمام عبد القاهر .

المبحث الأول : منهج الإمام عبد القاهر في تحليل النبوي والاستشهاد به .

المبحث الثاني : وقفات مع الأحاديث النبوية التي تناولها الإمام عبد القاهر.

الخاتمة .

الفهارس .

(تم دعم هذا البحث ماديًا من قبل جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية بالمشروع البحثي رقم (– ١٧٣٩/ ٠٢/ ٢٠١٤م .).

الفصل الأول

البلاغة القرآنية في تراث الإمام عبد القاهر

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : منهج الإمام عبد القاهر في التعامل مع الشاهد القرآني .

المبحث الثاني: وقفات مع بعض الآيات القرآنية التي تناولها الإمام عبد القاهر .

المبحث الأول

منهج الإمام عبد القاهر في الاستشهاد بالقرآن الكريم وتحليل الشاهد

أدرك الإمام عبد القاهر منذ وعى القرآن الكريم خطر الجهل بجهة إعجازه الأمر الذي قد يؤدي بكثير ممن دخلوا الإسلام ولا دراية لهم بوجه إعجازه إلى الزندقة والكفر خاصة بعد كثرة الفتوحات الإسلامية لاسيما في القرن الخامس الذي عاش فيه الإمام ورأى أثره بعد ذلك، وعانى مرارة تقويمه .

فشب والغيرة على الدين تشتعل في صدره وفكرة الدفاع عنه تسيطر على عقله تحدوها عزيمة صلبة وإخلاص عميق للتصدي لهذا الخطر .

وقد أفاض كثير من العلماء المعاصرين للإمام وممن سبقوه في الكلام عن وجوه إعجاز القرآن وبينوها، وردوا الشبه التي درات حولها لكن بقي أمر يكتنفه الغموض وهو الوسيلة لفهم هذا الإعجاز ، وكيف بها لمن لا يعرف العربية بل ومن يعرفها من أبنائها في عصور الضعف وذهاب الملكة وغياب السليقة .

فتوفرت على هذا المطلب همته وصارت غايته إظهار وسيلة فهم إعجاز القرآن الكريم وليس بيان وجه إعجازه الذي كفاه غيره من العلماء مؤنته ؛ وهو ما يفسر طريقة سيره في كتابه الدلائل وطبيعة الموضوعات التي تحدث عنها والنتائج التي خلص إليها ويغلق باب الطعن في منهجه في دراسة أبواب البلاغة .

فإن (... وجه إعجاز القرآن الكريم لم يكن غاية في أصله عنده ،وإنما كان وسيلة لغاية ،وهذه الوسيلة هي من لغة العرب ،ومن طرائقهم ،وما تعارفوا عليه من أساليب ، وتراكيب ،والغاية هي فهم القرآن الكريم ، ومراد الله تعالى في سوره وآيه ،حتى نقترب من أوامر الله . تعالى . ، ونجتنب نواهيه .

وأن عبد القاهر شُغل في رسالته الشافية ، وفي كتابيه الدلائل ، والأسرار بالتعريف بهذه الوسيلة ،وتبيان شروطها ، وسعتها ،وقدرتها ، وسماتها ، وخصائصها ، وكان يقوم في كل ما تقدَّم بدور الناقد الذي يقدم الجهد ، والتمييز ، والاختيار ،ثم يوجه إلى أفضل الوجوه ، وهذا كله يصدر عن ذوق مدرب ،وعلم منظم ،وشفافية عالية .[١]

تأمل قول الإمام :(وجملةُ الأمر أنَّه لا يَرى النّقَص يدخلُ على صاحبهِ في ذلك إلا من جهةِ نقصِه في علم اللُّغة لا يعلم أنَّ ها هُنا دقائقَ وأسرارًا طريقُ العلمِ بها الرويَّةُ والفِكرُ ولطائفَ مُسْتقاها العَقلُ وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُدُوا إليها ودُلُّوا عليها وكُشفَ لهم عنها ورُفعتِ الحجبُ بينَهُم وبينَها وأنّها السَّببُ في أنْ عرضتِ المزيَّةُ في الكلامِ ووجَبَ أن يفضُل بعضُه بعضاُ وأن يَبْعُدَ الشأْوُ في ذلك وتمتَدُّ الغايةُ وَيعلوَ المُرتقَى ويَعِزَّ المَطلبُ حتّى ينتهيَ الأمرُ إلى الإعجازِ وإلى أن يخرُجَ من طَوْقِ البَشر). [٢]

وقد سار في كتابه دلائل الإعجاز بطريقة تختلف عن سير سابقيه في التبويب والتفصيل وتناول المسائل بل اختلفت عن طريقته هو نفسه في كتابه أسرار البلاغة .

ذكر الشيخ محمود محمد شاكر في مقدمته لتحقيق كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر بعض الملاحظات ومنها : أنه رأى أن الإمام يؤسس لعلم جديد استدركه على من سبقه من الأئمة الذين كتبوا في البلاغة وفي إعجاز القرآن الكريم ولكن الغريب أنه لم يسر في بناء كتابه على سيرة من يؤسس علما جديدا

(١) ينظر معالم المنهج البلاغي عند الإمام عبد القاهر / د : محمد بركات حمدي أبو علي / ٧٤/ طبعة دار الفكر عمان .

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر/٧/ ت : محمود محمد شاكر / الطبعة الثالثة / ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م / مطبعة المدني بالقاهرة .

بل كان عمله مشوبا بحمية جارفة لا تعرف الأناة في التبويب والتقسيم والتصنيف وكأنه في عجلة من أمره وكأن منازعا كان ينازعه عند كل فكرة يريد أن يجليها ببراعته وذكائه وسرعة لمحه .. وقد كشف الشيخ محمود شاكر سر هذه العجلة عند الإمام قال: (ذلك أن عبد القاهر منذ بدأ في شق طريقه إلى هذا العلم الجديد الذي أسسه كان كل همِّه أن ينقض كلام القاضي في الفصاحة وان يكشف عن فساد أقواله في مسألة اللفظ بالمعنى المؤقت المحدد في كلامه في كتابه المغني دون المعنى المطلق للفظ من حيث هو لفظ ونطق لسان وإغفال هذه العلاقة يؤدي أو قد أدى إلى غلط فاحش في فهم مسألة اللفظ من حيث هو لفظ والمعنى عند عبد القاهر في كتابه هذا فلا اللفظ فهم على حقيقته عند عبد القاهر ولا المعنى أيضا عرف على حقيقته عنده ...

وأرجح أن عبد القاهر كتب كتابه هذا في آخر حياته ... وأنه كان يوشك أن يعيد النظر فيما في كتابه ليجعله تصنيفا في علم جديد اهتدى إليه واستدركه على من سبقه وشق الطريق إليه ومهده ولكن اخترمته المنية قبل أن يحقق ما أراد وأرجح أيضا أن السر في العجلة التي صرفته عن التبويب والتقسيم والتصنيف وأوجبت ان يبني كتابه هذا البناء العجيب هو فيما أظن أن طائفة من المعتزلة من أهل العلم في بلدته جرجان وفي زمانه كان لهم شغف ولجاجة وشغب وجدال ومناظرة في مسألة إعجاز القرآن واتكأوا في جدالهم على أقوال القاضي عبد الجبار التي جاءت في كتابه المغني ... وشققوا الكلام فيها وكانوا كما وصفهم عبد القاهر بقوله :(فإن أردت الصدق فإنك لا ترى في الدنيا شأنًا أعجب من شأن الناس مع اللفظ، ولا فساد رأي مازج النفوس وخامرها، واستحكم فيها، وصار كإحدى طبائعها، أغرب من فساد رأيهم في اللفظ. فقد بلغ من ملكته لهم وقوته عليهم، أن تركهم، وكأنهم إذا نوظروا فيه أخذوا عن أنفسهم، وغيبوا عن عقولهم، وحيل بينهم وبين أن يكون لهم فيما يسمعونه نظر، ويرى لهم إيراد في الإصغاء وصدر. فلست ترى

إلا نفوسًا قد جعلت ترك النظر دأبها، ووصلت بالهوينا أسبابها. فهي تغتر بالأضاليل، وتتباعد عن التحصيل، وتلقي بأيديها إلى الشبه، وتسرع إلى القول المموه.) . [1]

وهذه الصوارف عن التبويب والتقسيم رسمت منهج الإمام في سيره في كتابه هذا لذلك نجده في تناوله للآيات القرآنية يتوجه إلى ما يرد معتقد هؤلاء ويصحح خطأهم دون التوقف على كل مواطن الجمال في الآيات؛ لأن هذا هدف آخر يخرج به عن مبتغاه .

وقد اعتمد الإمام عبد القاهر الجرجاني في تناول الشواهد القرآنية على طريقة دقيقة متكاملة تعتمد على دمج الجانب الديني بالجانب العقلي .

فالأساس الديني الذي ينبع من عقيدة كل مسلم بأن القرآن كلام الله داع قوي مقرر لتفرده ، وإعجازه؛ فهو يؤمن بذلك أدرك أسبابه العقلية أم لم يدرك .

والأساس العقلي الذي يبحث عن أسباب التفوق ومظاهر الإعجاز ووجوهه وأسراره .

وهو في استدعاء الشاهد القرآني يركز على ما يحتاجه منه دون استنفاذ للجهد طلبًا لكل ما يستطيع أن يستخرج من البلاغة القرآنية .

لأنه يعلم أن البحث في أسرار الشواهد القرآنية سيقف به عن غايته التي يركز عليها لسببين : أحدهما عمق النسق القرآني واتساع مدلولاته التي تستنفد الجهد ولا تنتهي الأمر الذي يخرج به عن هدفه الذي تفرغ له .

الآخر قوة التركيز على الغرض الذي نصب له الكلام وحرصه على عدم الخروج عنه ، وتلك ميزة جليلة في منهج الإمام عبد القاهر في مناقشة القضايا والوصول فيها إلى الغايات .

---

(١) دلائل الإعجاز مقدمة المؤلف ص (و) .

ومن مميزات طريقة الإمام عبد القاهر في التحليل والشرح والحجاج أنه يدعم الشاهد بشاهد أو أكثر تأكيدًا وتقويةً وزيادة في اليقين الذي يترك خصمه مقرًا وموالِيًا ، وهو ما سار عليه في الاستشهاد بالقرآن الكريم حيث كان يتبع الآية بأخرى في سياق النظرية نفسها وللغاية نفسها حتى يعالج التردد في نفس الخصم عن النتائج التي يقررها ، وهو ما جعل المقبلين على مؤلفاته المؤيدين لآرائه في تزايد مستمر في كل عصر من العصور ومصر من الأمصار .

فمجمل المتلقين لعلومه لا يخرج عن مؤيد متابع لآرائه شغف بمناقشاته وتحليلاته أو معارض منتقد لأفكاره ونراه في حواره وتحليله ومناقشاته يركز عنايته على أولئك المعارضين وهؤلاء الخصوم .

وهو في جدالهم لا يتخذ أسلوب الهجوم الذي ينفر الخصم بل يعامل المخالف معاملة المحب الودود يتلطف في سوق المعلومة إليه ويشعره بحرصه عليه .

كما كان يتعامل مع بطيء الفهم بصبر وسعة صدر فيعاود الشرح في مثال تلو مثال حتى يتيقن من وصول معناه إلى قلب سامعه .

من الملاحظ في كم الشواهد التي استخدمها الإمام قلة الشواهد القرآنية التي وردت في تحليلاته بالقياس على استخدامه للشواهد الشعرية نظرًا لكونه بصدد بيان وجوه إعجاز القرآن فكان يستشهد بالشعر والنثر أكثر من الاستشهاد بالقرآن وهو ما يحقق عدة فوائد منها :

في تعامل الإمام مع الآيات القرآنية لا يعمد إلى مقدمات طويلة أو معان جانبية بل يتجه مباشرة إلى الغرض من الاستشهاد .

يبدأ بتحليل موضع الاستشهاد وما يتصل به من دلالات قريبة وظلال بعيدة ويلفت انتباه القارئ في أثناء ذلك إلى ما يمكن أن يغمض عليه .

من الأمور المميزة في تحليله للشاهد أنه لا يقطع الصلة بالمستمع بل يظل حريصًا على استمرار الحالة الحوارية التي لا تعطي فرصة لشرود الذهن أو جنوح الخيال بعيدًا عن أصل المسألة .

وفي أثناء ذلك لا يمل تكرار دعوة المتلقي للتأمل ودقة النظر وإعادته في المسألة حتى يصل إلى اليقين ، وهذا أمر يفيده الدارس والقارئ لتراث الإمام عبد القاهر فهو يدعوه دائمًا للصبر والتدقيق وإعادة النظر حتى يتيقن المسألة .

ومما يميز طريقته في المناقشة أنه يضع نفسه مكان مستمعه ويفترض مسائل تتعلق بالقضية موضع الحوار ثم يجيب عنها، وهو بذلك يروي ظمأ المستمع ويجيب عما يدور بخلده ، وقد كان موفقًا إلى حد كبير في هذا الجانب .

ومن مميزات الإمام في التحليل أنه يعيد فك الكلام وتركيبه بطرق مغايرة للنسق المعجز في القرآن الكريم؛ فيعرض لما يمكن نسجه من أنساق تتفاوت في تركيبها وصياغتها حتى يتملاها عقل المتلقي وقلبه؛ فيدرك بنفسه الفارق الكبير والهوة السحيقة بين النسقين ؛ فيرجع شكه في قيمة النظم يقينًا، وتردده في القطع بفضله ثباتًا وسيأتي بيان ذلك في استعراض تحليله .

والمتأمل في تراث الإمام يجد أنه أشار إلى جملة من الأمور في أصول البحث بصفة عامة منها :

– ضرورة التعمق في تتبع التفاصيل ، وعدم الاقتصار على القول المجمل ، تأمل قول الإمام ، وهو يتحدث عن ضرورة التعمق في تتبع التفاصيل في بيان الفصاحة ، وألا يكتفى فيها بالقول المجمل الذي لا يحقق الغاية ، وما يجب على من ينظر في تلك النصوص من صبر ، وتدبر في جزئياتها وكأنه يعلِّم من بعده أصول البحث ، والتنقيب الذي يثمر علمًا ، ويحقق غاية قال:(وإذا نظرتَ إلى الفصاحة هذا النظرَ وطلبْتَها هذا الطلبَ احتجتَ إلى صبرٍ على التأملِ ومُواظبةٍ على التدبُّر وإلى همَّةٍ تأبى لك أن تقنعَ إلا بالتَّمام وأن تَرْبَعَ إلاَّ بعدَ بلوغِ الغاية ومتى

جَشِمْتَ ذلك وأبيتَ إلا أن تكونَ هنالك فقد أممتَ إلى غرضٍ كريم ،وتعرَّضتَ لأمرٍ جَسيم وآثرتَ التي هي أتمُّ لدينكَ وفضلكَ وأنبلُ عندَ ذوي العقول الرّاجحة لك وذلك أن تعرفَ حُجّةَ الله تعالى منَ الوجهِ الذي هو أضوأُ لها وأنوهُ لها وأخلقُ بأن يزدادَ نورُها سُطوعًا وكوكبُها طُلوعًا وأن تسلكَ إليها الطريقَ الذي هو آمَنُ لكَ منَ الشَّك وأَبعدُ منَ الرَّيب وأصحُّ لليقين وأَحرى بأن يُبلِّغَك قاصِيةَ التبيين)[1].

وهدفه من معرفة أسباب الفصاحة تفصيلًا من البداية ، هو بيان الوسيلة التي يصل عن طريقها إلى القناعة المبنية على اليقين الناشئ عن بصيرة بأسبابه التي يتوصل إليها عن طريق معرفة الجزئيات لا عن طريق الوصف المجمل الذي لا يشفي ظمأ النفس ، ولا يحقق اليقين الذي هو أتم للدين، وأنبل عند ذوي اليقين ، وهو معرفة حجة الله على وجهها الحق دون ريب ، ومعرفة سر الإعجاز الذي يحقق هذا ، ولا يتأتى ذلك إلا بالوسيلة المناسبة وهي فقه اللغة وبيانها المرشد إلى كشف مزايا الأساليب وبيان معادنها وخصائصها قال الإمام : (وجملةُ الأمر أنَّه لا يَرى النّقَص يدخلُ على صاحبهِ في ذلك إلا من جهةِ نقصِه في علم اللُّغة لا يعلم أنَّ ها هُنا دقائقَ وأسرارًا طريقُ العلمِ بها الرويَّةُ والفِكرُ ولطائفَ مُسْتقاها العَقلُ وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُدُوا إليها ودُلُّوا عليها وكُشفَ لهم عنها ورُفعتِ الحجبُ بينَهُم وبينَها وأنّها السَّببُ في أنْ عرضتِ المزيَّةُ في الكلامِ ووجَبَ أن يفضُل بعضُه بعضاُ وأن يَبْعُدَ الشأْوُ في ذلك وتمتَدُّ الغايةُ وَيعلوَ المُرتقَى ويَعِزَّ المَطلبُ حتّى ينتهيَ الأمرُ إلى الإعجازِ وإلى أن يخرُجَ من طَوْقِ البَشر) . [2]

ثم إن النهج الذي انتهجه في تتبع المسائل ، والغوص في خفايا المعاني ، ودعا إليه منهج فريد يحقق نتيجة تقنع العقل ، وتطمئن لها النفس ، وتتلقاها

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر / ٣٧ .

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر / ٧ .

بالقبول ، ثم إن النص الذي ذكره الإمام يحتوي جملة من القواعد الجليلة في مجال البحث والتحليل إضافة إلى ما سبق ، ومنها :

قوله: (الصبر على التأمل) ليس مراده الصبر المجرد ، ولكن صبر من نوع خاص في شيء خاص ،لأنه يريد صبرًا في التأمل الذي هو أصل في إدراك الأمور، والتأمل نفسه أمر يحتاج إلى إعمال العقل حال صفائه ، ونظر في المسألة من جميع الوجوه، ثم تقليبها على مختلف جوانبها ليصل إلى النتيجة التي يبحث عنها .

ومنها قوله : (المواظبة على التدبر) والتدبر هو : النظر في دبر الأمور أي عواقبها ، وهو قريب من التفكر إلا أن التفكر تصرُّف بالنظر في الدليل ، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب. [١] .

وهذا التصرف بالنظر في العواقب يصبح عادة يواظب عليها صاحب النظر الدقيق والتي تعينه على إصابة المرمى ، وإدراك الغاية التي تلوح خلف أستار التراكيب ، ويودعها البليغ بين ثناياها ، وكأن الإمام يريد من الباحث في فنون القول مراعاة حصول مراتب العلم في النفس [٢] وعدم تخطِّي أي مرحلة من مراحل

---

(١) ينظر التوقيف على مهمات التعاريف / محمد عبد الرؤوف المناوي / ١٥٦، ١٦٧/ ت : د. محمد رضوان الداية / دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ، دمشق / الطبعة الأولى ، ١٤١٠.

(٢) مراتب حصول العلم في النفس هي : الشعور ، ثم الإدراك ، ثم الحفظ ، وهو استحكام المعقول في العقل ، ثم التذكر ، وهو محاولة النفس استرجاع ما زال من المعلومات ، ثم الذكر ، وهو رجوع الصورة المطلوبة إلى الذهن ثم الفهم ، وهو التعلق غالبًا بلفظ من مخاطبك ، ثم الفقه ، وهو العلم بغرض المخاطب من خطابه ، ثم الدراية ، وهو المعرفة الحاصلة بعد تردد مقدمات ، ثم اليقين ، وهو أن تعلم الشيء ، ولا تتخيل خلافه ، ثم الذهن ، وهو قوة استعدادها لكسب العلوم غير الحاصلة ، ثم الفكر ، وهو الانتقال من

التتبع السليم للمعنى بالنظر العقلي في النص الأدبي مع الصبر ، والتأمل ، والتدبر ، وإعطائه الوقت اللازم لاكتمال عملية الإدراك الصحيحة ، ولذلك نجده في مواطن أخرى يؤكد على ذلك ، ويلح على الباحث لأنه يعلم بالتجربة أنه الطريق الوحيد للوصول إلى الاقتناع الذي يحقق اليقين كقوله : (ثم راجعْ فكرتَك، واشْحَذْ بصيرتَك، وأحسِنِ التأمُّل، ودع عنك التجوُّز في الرأي، ثم انظر ...). [1]

ومنها مراجعة الفكرة ، والتي أشار إليها في هذا النص وهي من الأمور المهمة في مجال البحث في خصائص التراكيب ؛ لأن النظرة الأولى لا تحيط بجملة الحقيقة ، وإنما يصل إليها بعد الفكرة ، ومراجعتها مرات عديدة ، والصبر عليها .

المطالب إلى المبادئ ، ورجوعها من المبادئ إلى المطالب ، ثم الحدس ، وهو الذي يتميز به عمل الفكر ، ثم الذكاء ، وهو قوة الحدس ، ثم الفطنة ، وهي التنبه للشيء الذي يقصد معرفته ، ثم الكيس ، وهو استنباط الأنفع ، ثم الرأي ، وهو استحضار المقدمات ، وإجالة الخاطر فيها ، ثم التبين ، وهو علم يحصل بعد الالتباس ، ثم الاستبصار وهو العلم بعد التأمل ، ثم الإحاطة ، وهي العلم بالشيء من جميع وجوهه ، ثم الظن ، وهو أخذ طرفي الشك بصفة الرجحان ، ثم العقل ، وهو جوهر تدرك به الغائبات بالوسائط ، والمحسوسات بالمشاهدة ، والمدرك إن كان مجردًا عن المادة كإمكان زيد ، فإدراكه تعقل أيضا ، وحافظه ما ذكر أيضا ، وإن كان ماديًا ، فإما أن يكون صورة ، وهي ما يدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ، فإن كان مشروطًا بحضور المادة ، فإدراكه تخيل ، وحافظها الخيال ، وإما أن يكون معنى ، وهو ما لا يدرك بإحدى الحواس الظاهرة ، فإدراكه توهم ، وحافظها الذاكرة كإدراك صداقة زيد وعداوة عمرو ، وإدراك الغنم عداوة الذئب ، ولا بد من قوة أخرى متصرفة تسمى مفكرة ، ومتخيلة... ينظر (الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية / تأليف: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي/٢٨/ت:عدنان درويش – ومحمد المصري / دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر / ٢٢ .

ومن جملة الأمور التي أشار إليها الإمام في أصول البحث (شحذ البصيرة) ، ويقصد بشحذ البصيرة تنقيتها مما يكدر صفوها ، ويؤثر على حسن استقبالها للمعاني .

ولعل الإمام يقصد (بشحذ) -إضافة إلى ما سبق- تجديد الإخلاص ، وتحديد الهدف ، والتركيز على الغاية ، وتوجيه الطاقة العقلية إليها ، والتي تلمح الدقائق الخفية ، والعلاقات البينية التي تقوم في التراكيب .

أيضًا نبَّه إلى ضرورة علو الهمة ، ونفاسة الغاية، وهو يشير بذلك إلى استشعار قيمة الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه ويسخِّر له هذه المقدرات العقلية ، والجسدية ، ويضع فيه أنْفَسَ ما لديه ، وهو وقته ، وحشاشة نفسه؛ فلابد أن يسعى لتحصيل أعمق المعاني ، وألا يرضى بالظواهر التي يستوي في فهمها مع غيره وهو ما أشار إليه بقوله: (...وإلى همَّةٍ تأبى لك أن تقنعَ إلا بالتَّمام وأن تَرْبَعَ إلاَّ بعدَ بلوغِ الغاية).

كما نص على أهمية الإخلاص لله – تبارك وتعالى – ، فهو روح العمل ومادة بقائه ؛ لأن تعلقه بالخالق الخالد يعطيه مسحة من هذا الخلود لارتباطه به .

وهذا أمر واضح بيِّن في تراث العلماء المخلصين وأعمالهم التي لم يمحها كر الغداة ، ومر العشي قال : (ومتى جَشِمْتَ ذلك وأبيتَ إلا أن تكونَ هنالك فقد أممتَ إلى غرضٍ كريم ،وتعرَّضتَ لأمرٍ جَسيم وآثرتَ التي هي أتمُّ لدينكَ وفضلكَ وأنبلُ عندَ ذوي العقول الرّاجحة لك . وذلك أن تعرفَ حُجّةَ الله تعالى منَ الوجهِ الذي هو أضوء لها وأنوهُ لها وأخلقُ بأن يزدادَ نورُها سُطوعًا وكوكبُها طُلوعًا وأن تسلكَ إليها الطريقَ الذي هو آمَنُ لكَ منَ الشَّك وأَبعدُ منَ الرَّيب وأصحُّ لليقين وأَحرى بأن يُبلِّغَك قاصِيةَ التبيين) .

كما حملت عبارته الدعوة إلى المجاهدة ، والمكابدة :وهي من الأمور التي نص عليها الإمام في غير موضع من كتابيه وبدت خلال دعوته للصبر وطول

التأمل ،ومتابعة التفاصيل الدقيقة ، وشحذ البصيرة ،وعلو الهمة ،وهي في مجملها عين المجاهدة ، والمكابدة . [١]

(١) ينظر علم البديع عند الإمام عبد القاهر بين النظرية والتطبيق – بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بأسيوط في الجزء الأول من العدد الثامن والعشرين سنة ١٤٢٩ هـ . ص ٣٣ .

المبحث الثاني
وقفات مع بعض الآيات القرآنية التي تناولها الإمام عبد القاهر

قلنا أن الإمام عبد القاهر انطلق من وازع ديني ملك أقطار نفسه لإظهار وسيلة فهم وجه إعجاز القرآن الكريم التي تكشف خصوصية نظمه ، وتفرُّدَ بلاغته حتى يقف عليها كل من دخل في الإسلام فيعلم وجه إعجاز القرآن الذي يؤكد قناعته بأنه كلام الله – عز وجل – .

يحدو هذا الوازع الديني ذوق رفيع وحس مرهف وإدراك لأسرار الكمال ومواطن الجمال في العربية .

وبذلك توفر له الدافع العميق بالغ الأثر في تحريك الهمم والوسيلة القوية ليبدع في الدراسة والتحليل والمناقشة والتنظير والتطبيق، ويضع بصمته على كثير من فنونها بأسلوب يحمل سمات العبقرية وخصائصه الشخصية .

وقد مزج بين هذا الهدف الديني بالهدف العقلي في بنية اللغة فوظف الأخير للأول بطريقة تفرد بها عمن سبقوه .

وقد سلك لذلك كل سبيل يسهم في كشف دقائق النظم بما يخدم القضايا التي نصبها هدفًا بين عينيه وأفرغ لها قلبه ، فحلل أجزاء النسق البديع وعرض مكوناته مقررًا أن المزية فيه ليست للفظة مفردة مهما بلغت فصاحتها قال : (وهل يقع في وهم، وإن جهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخص، وامتزاجها أحسن، ومما يكد، اللسان أبعد؟ وهل تجد أحدًا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها. وهل قالوا: لفظة متمكنة

ومقبولة وفي خلافه: قلقة ونابية ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم. وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقًا للتالية في مؤداها؟).[1]

وقد استخدم شواهد من القرآن لأنها احتوت أعظم مفردات وردت في نظم وراح يوضح نظريته في كون مزيتها من مكانها في النظم وليست لها مفردة، وأن موقعها في السياق يحدد أثرها وقيمتها قال : (وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" .(هود ٤٤) فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع! أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا، إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها) . [2]

قرر الإمام إجمالًا ما يريد تقريره من قيمة اللفظة في سياقها وطريقة وضعها ومكانها من غيرها وطبيعة ارتباطها بها ثم انتقل – على عادته– في قراءة أفكار مخاطبيه – بافتراض التردد في قبول النتيجة المجملة لعدم قدرة المخاطب على إدراك ما أشار إليه (كما ذكر الشيخ محمود شاكر أنه كان يخاطب مجموعة من المعتزلة من أهل العلم في كلام نقلوه عن رؤوس راسخين في علوم أخرى فصارت عندهم كالمسلمات ينظر مقدمة دلائل الإعجاز ص (و)؛ فراح يفصل بعض مظاهر الإعجاز القرآني في النظم قال : (إن شككت فتأمل! هل ترى لفظة منها بحيث لو

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٤ .

(٢) دلائل الإعجاز ص : ٤٥ .

أخذت من بين أخواتها، وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل: ابلعي واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء ب يا دون أي نحو: يا أيتها الأرض. ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها. ثم أن قيل: وغيض الماء. فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى:" قضي الأمر".

ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو " استوت على الجودي " . ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن. ثم مقابلة قيل في الخاتمة ب قيل في الفاتحة. أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقًا باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟ فقد اتضح إذًا اتضاحًا لا يدع للشك مجالًا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة. وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ.) . [1]

ومن الملاحظ في تحليله للشاهد أنه يأخذ بيد المخاطب حتى يستقيم على طريق الفهم السليم لموضع الشاهد ويدرك وجه الاستشهاد .

(١) دلائل الإعجاز ص : ٤٦ .

كما يعمل على تدريبه على التحليل من خلال التجربة ومحاولة الوصول إلى المغزى منه وهو أسلوب يحترم عقل المخاطب، ويربي الذوق والملكة، ويعلم التدقيق والتحقيق والتأمل الذي يصل في النهاية إلى القناعة .

فقوله (إن شككت...) وهو استكناه لعقل المخاطب واستبطان لوجدانه يعقبه محاولة لسبر أغواره، واستقصاء ما يجول في خاطره من أفكار تصادم ما هو بصدد تقريره بفتح باب الفكر الخالص من شوائب التردد ودعوته بقوله : (... فتأمل!).

كما أن التدرج في تقريب الفكرة الذي يتميز به تحليل الإمام عبد القاهر للشاهد القرآني والنبوي، لا يثقل على المخاطب، ويبلغ به المقصود بنظام متسلسل يرسخ في ذهنه .

إضافة إلى طريقته في دعم الشاهد بشواهد أخرى تزيده وضوحًا وتأكيدًا الأمر الذي يكشف أبعاد الفكرة ويبرز معالمها ، ويحقق الرضا بالنتائج .

ونراه عند تحليل الشاهد يتناوله بطريقة تخدم الفكرة التي يسعى إلى تقريرها؛ فيبرز من ثنايا الشاهد وجوه إعجاز النظم القرآني، ويكشف بعض مظاهره التي تمثلت في دقة اختيار المفردات مع طريقة ربطها بغيرها في النسق الأعلى قال :(ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء ب يا دون أي نحو: يا أيتها الأرض. ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء ...) .[1]

وتحليل الإمام لهذا الجزء من الآية يكشف عن طلاقة القدرة في خطاب ما لا يعقل وهو مظهر من مظاهر الإعجاز في خطاب الله للكائنات وتوجيه الأوامر والنواهي لها كما توجه للعقلاء .

(١) دلائل الإعجاز ص : ٤٥ .

فقد قرر أن من وجوه الإعجاز في النسق البداية بنداء ما لا يعقل نداء العاقل ويحتمل أن يكون النداء على حقيقته لطلاقة القدرة التي تبث الحياة في الجمادات فتحيلها عاقلات سامعات مجيبات، وإذا كان ذلك كذلك فنفاذ حكمه في العقلاء أولى وهو ما قرره صاحب تفسير اللباب في تفسير الآية قال : " يَا أرضُ وَيَا سَمَاءُ " مشعرٌ بحسب الظَّاهر على أنَّ أمره وتكليفه نافِذٌ في الجمادات ، وإذا كان كذلك حكم الوهم بأنَّ نفوذ أمره على العقلاء أولى ، وليس المرادُ منه أَنَّهُ تعالى يأمرُ الجمادات فإنَّ ذلك باطل ، بل المراد أنَّ توجيه صيغة الأمر بحسب الظَّاهر على هذه الجمادات القويَّة الشديدة يقرّر في الوهم قدر عظمته وجلاله تقريرًا كاملًا) .[1]

ويحتمل أن يكون على سبيل المجاز قال الطاهر بن عاشور(وخطاب الأرض والسماء بطريقة النداء وبالأمر استعارة لتعلق أمر التكوين بكيفيات أفعال في ذاتيهما وانفعالهما بذلك كما يخاطب العاقل بعمل يعمله فيقبله امتثالا وخشية. فالاستعارة هنا في حرف النداء وهي تبعية..). [2]

(ثم اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها. ثم أن قيل: وغيض الماء. فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر. ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: " قضي الأمر " . ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو " استوت على الجودي " . ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن. ثم مقابلة قيل في الخاتمة بـ قيل في الفاتحة). [3]

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . (أبو حفص عمر بن على ابن عادل الدمشقي الحنبلي المتوفى بعد سنة ٨٨٠ هـ) ج: ١ / ص ٢٨٦٠ / دار النشر / دار الكتب العلمية . بيروت .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور/ ١١ / ٢٦٤ .

(٣) دلائل الإعجاز ص : ٤٥ .

كما أشار الإمام عبد القاهر إلى دقة اختيار أداة النداء (يا) التي ينادى بها البعيد مع قربها.

وأشار إلى معنى المطابقة وبلاغتها حيث طابق بين الأرض وما لها والسماء وما يخصها قال :(ثم اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها).

وبين وجه الفخامة والتعظيم في الإضمار قبل الذكر قال : (ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن)

ثم أشار إلى رد العجز على الصدر في قوله (ثم مقابلة قيل في الخاتمة ب قيل في الفاتحة.)

وبناء فعل {قِيلَ} للمفعول هنا اختصار لظهور فاعل القول، لأن مثله لا يصدر إلا من الله. والقول هنا أمر التكوين. (١)

والبلع حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم. وهو هنا استعارة لإدخال الشيء في باطن شيء بسرعة، ومعنى: بلع الأرض ماءها دخوله في باطنها بسرعة كسرعة ازدراد البالع بحيث لم يكن جفاف الأرض بحرارة شمس أو رياح بل كان بعمل أرضي عاجل، وقد يكون ذلك بإحداث الله زلازل وخسفا انشقت به طبقة الأرض في مواضع كثيرة حتى غارت المياه التي كانت على سطح الأرض) .(٢)

قال في "الكشاف" (ومجيء أخباره على الفعل المبنى للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكون قاهر ، وأنّ فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله ، فلا يذهب الوهم إلى أن

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور / ١١ / ٢٦٥.

(٢) التحرير والتنوير – ١١ / ٢٦٥ .

يقول غيره : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، ولا أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره ، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره ، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم ، لا لتجانس الكلمتين ، وهما قوله ابْلَعِي وأَقْلِعِي وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن ، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور) .[1]

وقد تصدى السكاكي في "المفتاح" في بحث البلاغة والفصاحة لبيان بعض خصائص البلاغة في هذه الآية، تقفية على الكلام "الكشاف" فيما نرى فقال:

"والنظر في هذه الآية من أربع جهات، من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني... ومن جهة الفصاحة المعنوية ومن جهة الفصاحة اللفظية. أما النظر فيها من جهة علم البيان... فنقول: إنه عز وجل لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها.. وأن نقطع طوفان السماء.. وأن نغيض الماء.. وأن نقضي أمر نوح – عليه السلام – وهو إنجاز ما كنا وعدنا من إغراق قومه.. وأن نسوي السفينة على الجودي.. وأبقينا الظلمة غرقى بني الكلام على تشبيه المراد بالمأمور... وتشبيه تكوين المراد بالأمر.. وأن السماوات والأرض... تابعة لإرادته... كأنها عقلاء مميزون... ثم بنى على تشبيهه هذا نظم الكلام فقال جل وعلا {قِيلَ} على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد...فقال: {يا أَرْضُ – ويَا سَمَاءُ} ... ثم استعار لغور الماء في الأرض البلع.. للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي، ثم استعار الماء

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ) ج : ٢ / ٣٩٨ / الناشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت سنة: ١٤٠٧ هـ

للغذاء استعارة بالكناية تشبيها له بالغذاء لتقوي الأرض بالماء في الإنبات... تقوي الآكل بالطعام، وجعل قرينة الاستعارة لفظه (ابلعي)... ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره، وخاطب في الأمر ترشيحا لاستعارة النداء، ثم قال: {مَاءَكِ} بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيها لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح، ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان، ثم أمر على سبيل الاستعارة وخاطب في الأمر قائلا: {أَقْلِعِي} لمثل ما تقدم في {ابْلَعِي} ، ثم قال: {وَغِيضَ الْمَاءُ).

قال السكاكي في بلاغة الآية بعد ان استقصى ما استطاع من وجوه بلاغتها (ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان، وأن لا علم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه هو الذي يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقه ويصون له في مظان التأويل ماءه ورونقه).[1]

وحين توقف الإمام عبد القاهر على أثر الاستعارة ودور النظم في تكوينها ونظرة كثير من الناس لجمالها ورونقها والوجه الذي كان سببًا في هذا الرونق وتلك المزية وعدم إدراك الناس لحقيقة مصدرها قال : (وهذا هو الذي أردت حين قلت لك: إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه، إلا من بعد العلم، بالنظم والوقوف على حقيقته) .

(١) مفتاح العلوم للسكاكي – ١٨٤ .

ثم استشهد بمثال واضح من النظم المعجز للقرآن الكريم قال (ومن دقيق ذلك وخفيه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: " وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا" (مريم ٤) لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجبًا سواها. هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم) .[١]

ثم بين سر البلاغة العالية والجمال المسيطر للعبارة التي ضمت الاستعارة وأن مصدرها تكوين متميز لنسق عال ونظام بديع وكشف جانبًا من بلاغة القرآن خلال إظهار قيمة النظم قال : (وليس الأمر على ذلك. ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة. ولكن لأن سلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو سببه فيرفع به ما يسند إليه، ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى، منصوبًا بعده مبينًا أن ذلك الإسناد، وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: طاب زيد نفسًا، وقر عمرو عينًا، وتصبب عرقًا، وكرم أصلًا، وحسن وجهًا. وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولًا من الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه. وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ. كما أن طاب للنفس، وقر للعين، وتصبب للعرق، وإن أسند إلى ما أسند إليه، يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك، وتوخي به هذا المذهب، أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحًا فتقول: اشتعل شيب الرأس والشيب في الرأس. ثم تنظر: هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فإن قلت: فما السبب في أن كان اشتعل إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل؟ ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو

(١) دلائل الإعجاز ص : ١٠٠ .

أصل المعنى الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه، وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به. وهذا ما لا يكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس. بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة. ووزان هذا أنك تقول: اشتعل البيت نارًا. فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه، وأخذت في طرفيه ووسطه. وتقول: اشتعلت النار في البيت. فلا يفيد ذلك، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانبًا منه. فأما الشمول، وأن تكون قد استولت على البيت، وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة. (١)

وبعد تحليل واف مستفيض لعبقرية النسق وكشف لكثير من مظاهر الإعجاز في النظم القرآني تأكيدا لما يسعى إلى تقريره من كون المزية للنظم وليس للفظ المستعار وحده أتبع الشاهد بشاهد آخر على عادته في التأكيد وبلوغ اليقين في عقل المتلقي وقلبه لما يريد تحقيقه قال : (ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل: (وفجّرْنا الأرضَ عُيُونًا) (القمر : ١٢) التفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض في اللفظ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس. وقد حصل بذلك من معنى الشمول هاهنا مثل الذي حصل هناك. وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيونًا كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها.) .(٢)

ومن مميزات الإمام في التحليل أنه يعيد فك الكلام وتركيبه بطرق مغايرة للنسق البليغ حتى يضع النسقين أمام عين البصير ليدرك بنفسه الفارق الكبير والهوة السحيقة بين النسقين فيرجع شكه في قيمة النظم يقينًا وتردده في القطع بفضله ثباتًا قال بعض أن عرض عظمة تكوين النسق المعجز : (ولو أجري اللفظ

(١) دلائل الإعجاز ص : ١٠٠ .

(٢) دلائل الإعجاز ص : ١٠٢ .

على ظاهره فقيل: وفجرنا عيون الأرض، أو العيون في الأرض، لم يفد ذلك، ولم يدل عليه، ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض، وتبجس من أماكن منها.

واعلم أن في الآية الأولى شيئًا آخر من جنس النظم، وهو تعريف الرأس بالألف واللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية. ولو قيل: واشتعل رأسي. فصرح بالإضافة لذهب بعض الحسن فاعرفه). [1]

وفي حديثه عن بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم وسر التميز في الأسلوب وطبيعة المعاني وظلال الألفاظ ومبعثها وتأثير مكانها من السياق على تغير الدلالة قال : (واعلم أن هذا الذي ذكرت لك في الهمزة وهي للاستفهام قائم فيها إذا كانت هي للتقرير. فإذا قلت: أأنت فعلت ذاك؟ كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل. يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمرود: " أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ" (الأنبياء ٦٢) لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان. وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم: أ أنت فعلت هذا؟. وقال هو عليه السلام في الجواب: " بل فعله كبيرهم هذا " . ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: فعلت أو لم أفعل. فإن قلت: أو ليس إذا قال: أفعلت فهو يريد أيضًا أن يقرره بأن الفعل كان منه بأنه كان على الجملة. فأي فرق بين الحالين؟ فإنه إذا قال: أفعلت؟ فهو يقرره بالفعل من غير أن يردده بينه وبين غيره، وكان كلامه كلام من يوهم أنه لا يدري أن ذلك الفعل كان على الحقيقة. وإذا قال: أأنت فعلت؟ كان قد ردد الفعل بينه وبين غيره، ولم يكن منه في نفي الفعل تردد. ولم يكن كلامه كلام من يوهم أنه لا يدري أكان الفعل أم لم يكن، بدلالة أنك تقول ذلك، والفعل ظاهر موجود مشار إليه كما رأيت في الآية.

(١) دلائل الإعجاز ص : ١٠٢ .

واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه. ولها مذهب آخر وهو أن يكون لإنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله. ومثاله قوله تعالى: " أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا " (الإسراء ٤٠) وقوله عز وجل: " أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ "(الصافات ١٥٣- ١٥٤) . فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم. وإذا قدم الاسم في هذا صار الإنكار في الفاعل، ومثاله قولك للرجل قد انتحل شعرًا: أ أنت قلت هذا الشعر؟ كذبت لست ممن يحسن مثله. أنكرت أن يكون القائل، ولم تنكر الشعر.

وقد تكون إذ يراد إنكار الفعل من أصله، ثم يخرج اللفظ مخرجه إذا كان الإنكار في الفاعل، مثال ذلك قوله تعالى: " قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ " (يونس ٥٩) الإذن راجع إلى قوله: " قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامًا وحلالًا " ومعلوم أن المعنى على إنكار أن يكون قد كان من الله تعالى إذن فيما قالوه من غير أن يكون هذا الإذن قد كان من غير الله فأضافوه إلى الله. إلا أن اللفظ أخرج مخرجه إذا كان الأمر كذلك لأن يجعلوا في صورة من غلط، فأضاف إلى الله تعالى إذنًا كان من غير الله فإذا حقق عليه ارتدع. (١)

ومن طرق الإمام التي كان يلجأ إليها أحيانا في كشف مزايا القرآن وتحليل بلاغته أنه يبدأ بشرح المسألة بأمثلة سهلة أو افتراضية يستطيع خلالها تقريب القضية وكشف أبعادها حتى إذا أدرك أن الفكرة اتضحت بهذه الأمثلة ارتقى بهم إلى النظم القرآني .

وهي طريقة جيدة استخدمها الإمام في بعض القضايا الغامضة وهي شكل من أشكال العرض والتحليل التي نوع بها طرقه في التعليم وفي الإقناع .

(١) دلائل الإعجاز ص : ١١٤ .

قال في مبحث الاستفهام (واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه لتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع، ويعيا بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه. فإذا ثبت على دعواه قيل: فافعل، فيفضحه ذلك . وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ. وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته، وقيل له: فأرناه في موضع، وفي حال. وأقم شاهدًا على أنه كان في وقت. ولو كان يكون للإنكار، وكان المعنى فيه من بدء الأمر لكان ينبغي أن لا يجيء فيما لا يقول عاقل: إنه يكون حتى ينكر عليه كقولهم: أتصعد إلى السماء؟ أتستطيع أن تنقل الجبال؟ أ إلى رد ما مضى سبيل؟ وإذ قد عرفت ذلك، فإنه لا يقرر بالمحال، وبما لا يقول أحد: إنه يكون إلا على سبيل التمثيل، وعلى أن يقال له إنك في دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدعي هذا المحال، وإنك في طمعك في الذي طمعت فيه بمنزلة من يطمع في الممتنع.وإذ قد عرفت هذا فمما هو من هذا الضرب قوله تعالى: " أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أو تهدي العُمْيَ " (الزخرف : ٤٠) ليس إسماع الصم مما يدعيه أحد، فيكون ذلك للإنكار. وإنما المعنى فيه التمثيل والتشبيه، وأن ينزل الذي يظن بهم أنهم يسمعون، أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يسمع الصم ويهدي العمي. ثم المعنى في تقديم الاسم وأن لم يقل: أتسمع الصم؟. هو أن يقال للنبي صلى الله عليه وسلم: " أ أنت خصوصًا قد أوتيت أن تسمع الصم " ؟ وأن يجعل في ظنه أنه يستطيع إسماعهم بمثابة من يظن أنه قد أوتي قدرة على إسماع الصم. [1]

وفي حديث الإمام عن بلاغة الإضمار قبل الذكر في القرآن وسر الفخامة قال: (ومن هاهنا قالوا: إن الشيء إذا أضمر، ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن

(١) دلائل الإعجاز ص : ١١٩ .

يذكر من غير تقدم إضمار، ويدل على صحة ما قالوه أنا نعلم ضرورة في قوله تعالى: " فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ " (الحج ٤٦) فخامة وشرفًا وروعة لا نجد منها شيئًا في قولنا: فإن الأبصار لا تعمى. وكذلك السبيل أبدًا في كل كلام كان فيه ضمير قصة. فقوله تعالى: " إنه لا يفلح الكافرون " يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين ما لو قيل: إن الكافرين لا يفلحون، لم يفد ذلك، ولم يكن ذلك كذلك إلا لأنك تعلمه إياه من بعد تقدمة وتنبيه أنت به في حكم من بدأ وأعاد ووطد، ثم بين ولوح ثم صرح. ولا يخفى مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق...

وكقوله له تعالى: " وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ " (آل عمران ٧٨) فهذا من أبين شيء وذاك أن الكاذب لا سيما في الدين لا يعترف بأنه كاذب، وإذا لم يعترف بأنه كاذب كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب، أو يجيء فيما اعترض فيه شك نحو أن يقول الرجل: كأنك لا تعلم ما صنع فلان ولم يبلغك، فيقول: أنا أعلم ولكني أداريه، أو في تكذيب مدع كقوله عز وجل: " وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ " (المائدة ٦١) . وذلك أن قولهم: آمنا، دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به، فالموضع موضع تكذيب. أو فيما القياس في مثله أن لا يكون كقوله تعالى: " وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ " (الفرقان ٣) وذلك أن عبادتهم لها تقتضي أن لا تكون مخلوقة. وكذلك في كل شيء كان خبرًا على خلاف العادة، وعما يستغرب من الأمر، نحو أن نقول: ألا تعجب من فلان يدعي العظيم، وهو يعيا باليسير، ويزعم أنه شجاع وهو يفزع من أدنى شيء؟. ومما يحسن ذلك فيه ويكثر الوعد والضمان كقول الرجل: أنا أعطيك، أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر. وذلك أن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به، فهو من أحوج شيء إلى التأكيد...

فتراه في حديثه عن الأغراض البلاغية والأسرار التعبيرية لحذف المفعول في الأنساق العالية وفي البيان المعجز يقول : (وإن أردت أن تزداد تبيينًا لهذا الأصل أعني وجوب أن تسقط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله، ولا يدخلها شوب فانظر إلى قوله تعالى: " وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ " (القصص ٢٣-٢٤) . ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع إذ المعنى: وجد عليه أمة من. الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا: لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما. ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره، ويؤتى بالفعل مطلقًا. وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقي. فأما ما كان المسقي غنمًا أم إبلًا أم غير ذلك فخارج عن الغرض، وموهم خلافه. وذاك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم) . [1]

وهذا التحليل العبقري الكاشف عن سر الحذف وجمال الغاية ودقة النسق يقرر الحقيقة التي يسعى الإمام إلى توضيحها في الأذهان وتقريبها من عقول ابتعدت عنها لضعف ملكة أو غلبة رأي أو ركوب هوى رغبة في لجاجة .

طريقة النسق في الحذف والذكر وصرف وتوجيه عقل المخاطب وتركيز بؤرة اهتمامه على المقصود بحسب أهميته في السياق أمر في غاية الدقة لا يتأتى من

(١) دلائل الإعجاز ص : ١٦١ .

لفظة بقيت أو من لفظ حذفت بل من أين حذفت وأين وضعت وعلاقاتها بغيرها في شبكة الدلالات المتلاحمة والمتلاحقة في السياق .

الأسلوب المسيطر هو الذي يستطيع قيادة عقل المخاطب وتوجيه الطاقة الشعورية له تجاه هدف معين من خلال النسق .،فيقدم ويؤخر ويثبت ويحذف ويستعير أو يترك فتجد الذبذبة الشعورية للمخاطب تبعًا لبراعة المتكلم تتقلب معه حيث يضحك ويبكي ويشجي ويطرب ويطمع ويؤيس وفي ختامه يترك أثرًا لا يبرح وجدانه ولا يسلو عنه خاطره يحن إليه أدرك سره أو لم يدركه .

وهذا أثر النسق الأعلى حيث درجة الإعجاز التي تبقى دليلا على صدق النبوة يلوح فيها الفارق بين البلاغة القرآنية والبلاغة البشرية في أسمى صورها كما يلوح الفرق بين القدرة الإلهية والقدرة البشرية على صفحة الكون مهما بلغ الإنسان في العلم وارتقى في الفنون .

أدرك ذلك أساطين البيان في عصر النبوة فشهدوا بذلك في غفلة من عنادهم وعلى سهوة من جحودهم عندما بلغت سيطرت الأسلوب القرآني مبلغها في وجدانهم فطغت على طغيانهم وأنطقت ألسنتهم بحقيقة ودوا لو كتموها .. لكن شياطين الإنس سرعان ما حملوهم على نكران هذه الحقائق وفقدان تلك الرقائق والتغاضي عن تلك الدقائق التي يفترق فيها الحق عن الباطل فعادوا إلى كفرهم وعنادهم ..

نعم عادوا لكن بعد أن أدى النسق العالي في قلوبهم وظيفته فأدركوا حقيقته وأنه كلام معجز ليس في طوق البشر وبذلك قامت حجة الله عليهم .

الفصل الثاني

البلاغة النبوية في تراث الإمام عبد القاهر .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : منهج الإمام عبد القاهر في تحليل النبوي والاستشهاد به .

المبحث الثاني : وقفات مع الأحاديث النبوية التي تناولها الإمام عبد القاهر.

المبحث الأول
منهج الإمام عبد القاهر في تحليل النبوي والاستشهاد به

الشواهد النبوية في تحليلات الإمام عبد القاهر تلي الشواهد الشعرية ، والقرآنية من ناحية الكثرة ذلك أن الإمام كان يريد أن يكشف عن طريقة فهم إعجاز القرآن الكريم فكان يكثر الاستشهاد بكلام العرب شعرًا ونثرًا ليكون أدعى إلى إقناع الخصم المعاند والجاهل المجادل والمبتدئ الناشئ .

وقد استخدم الشاهد في الحديث النبوي بالطريقة نفسها في الاستشهاد بالقرآن حيث كان يختار الشاهد الذي يخدم القضية فيعرضه بطريقة تخدم الفكرة التي يسعى إلى تقريرها .

كان يتجه إلى موطن الشاهد فيكشف أبعاد الفكرة خلاله ويوضح ما يتصل بها والروافد التي تهدي إليها .

وقد كشفت تحليلات الإمام عبد القاهر للحديث النبوي عن كثير من مظاهر التفوق الأسلوبي الذي تصدَّر به البيان النبوي أساليب البشر غير أنه لم يعمد إلى استقصاء هذه المظاهر لضيق وقته .

ولعله لم يعمد إلى الحديث النبوي ليكشف كل ما فيه من جماليات أو يحاول أن يعدد مظاهر التفوق في البيان النبوي ؛ لأن ذلك يخرج به عن غرضه الذي نصب له الكلام .

فمن المعلوم أن مظاهر تفوق الأسلوب النبوي تحتاج إلى مؤلفات تستنفد العمر والجهد ، وقد تفرَّغ لهذا العمل بعض العلماء فتناولوا هذا الجانب وأفاضوا فيه بين مقل ومكثر ومن ثُم لم توجب الحاجة الحديث في هذا الجانب كما أوجبت في

جانب البحث في وسيلة فهم وجه إعجاز القرآن الكريم التي لم يعرض لها أحد كما عرض لها الإمام .

لم يتعرض الإمام للحكم على الحديث النبوي من ناحية الصحة والضعف فاستشهد بأحاديث مختلفة الدرجات في الصحة ولم تخل من الضعيف .

كما أنه لم يتعرض للراوي في كثير من الأحاديث التي استشهد بها؛ فذكر الحديث مرفوعًا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – .

لم يتعرض للروايات المختلفة للحديث حتى يكشف ما بينها من فروق في الأساليب وما تضيفه من أوجه بلاغية ؛ ولعل السبب في ذلك هو تركيزه الشديد على غرضه وحرصه على إتمامه إذ كان في سباق مع الزمن لإنجاز عمله مع تقدم سنه وشعوره بدنو أجله كما ذكر الشيخ محمود شاكر في مقدمة التحقيق قال : (وأرجح أن عبد القاهر كتب كتابه هذا في آخر حياته ... وأنه كان يوشك أن يعيد النظر فيما في كتابه ليجعله تصنيفا في علم جديد اهتدى إليه واستدركه على من سبقه وشق الطريق إليه ومهده ولكن اخترمته المنية قبل أن يحقق ما أراد وأرجح أيضا أن السر في العجلة التي صرفته عن التبويب والتقسيم والتصنيف وأوجبت ان يبني كتابه هذا البناء العجيب هو فيما أظن أن طائفة من المعتزلة من أهل العلم في بلدته جرجان وفي زمانه كان لهم شغف ولجاجة وشغب وجدال ومناظرة في مسألة إعجاز القرآن واتكأوا في جدالهم على أقوال القاضي عبد الجبار التي جاءت في كتابه المغني ...) .[1]

كان يدعم الحديث النبوي بحديث آخر في السياق نفسه وللغاية نفسها وربما أتبعه بشاهد من كلام فصحاء العرب شعرًا أو نثرًا حتى يتأكد من ثباته في ذهن مخاطبه وحتى يتأكد من بلوغ معناه إلى مختلف الأفهام فعقول الناس لا تتساوى

(١) دلائل الإعجاز مقدمة المؤلف ص (و) .

في الفهم والاستيعاب ، وهذا مما يتعلمه المطالع لتراث الإمام عبد القاهر لأنه كان يراعي أحوال من يخاطبهم وهو في هذا بسبيل الأسلوب النبوي الذي كان يخاطب بأسلوبه مختلف الأفهام ويعالج مختلف الأوهام .

تأمل قول الإمام عبد القاهر في حواره الحقيقي أو الفرضي مع من يخاطبه (فيا أيها السامع لما قلناه، والناظر فيما كتبناه، والمتصفح لما دوناه، إن كنت سمعت سماع صادق الرغبة في أن تكون في أمرك على بصيرة، ونظرت نظر تام العناية في أن يورد ويصدر عن معرفة، وتصفحت تصفح من إذا مارس بابًا من العلم لم يقنعه إلا أن يكون على ذروة السنام، ويضرب بالمعلى من السهام، فقد هديت لضالتك، وفتح الطريق إلى بغيتك، وهي لك الأداة التي بها تبلغ، وأوتيت الآلة التي معها تصل. فخذ لنفسك بالتي هي أملًا ليديك، وأعود بالحظ عليك، ووازن بين حالك الآن وقد تنبهت من رقدتك، وأفقت من غفلتك، وصرت تعلم إذا أنت خضت في أمر اللفظ والنظم معنى ما تذكر، وتعلم كيف تورد وتصدر، وبينها وأنت من أمرها في عمياء، وخابط خبط عشواء. قصاراك أن تكرر ألفاظًا لا تعرف لشيء منها تفسيرًا، وضروب كلام للبلغاء إن سئلت عن أغراضهم فيها لم تستطع، تبيينًا، فإنك تراك تطيل التعجب من غفلتك، وتكثر الاعتذار إلى عقلك من الذي كنت عليه طول مدتك. ونسأل الله تعالى أن يجعل كل ما نأتيه، ونقصده وننتحيه، لوجهه خالصًا، إلى رضاه عز وجل مؤديًا، ولثوابه مقتضيًا، وللزلفى عنده موجبًا، بمنه وفضله ورحمته) . [1]

فقد حرص في البداية على لفت انباهه بالنداء المتنوع ليضمن تمام إقباله عليه قال : (فيا أيها السامع لما قلناه، والناظر فيما كتبناه، والمتصفح لما دوناه) ثم يسل سخيمة نفسه ويهيئ وجدانه لقبول العلم من دون موانع نفسية لا علاقة

(١) دلائل الإعجاز ص : ٤٧٧ .

لها بالبحث العلمي ، ثم يشحذ عزيمته ويعلي همته ويحرك طموحه لأسمى غاية في مسألته قال : (إن كنت سمعت سماع صادق الرغبة في أن تكون في أمرك على بصيرة، ونظرت نظر تام العناية في أن يورد ويصدر عن معرفة، وتصفحت تصفح من إذا مارس بابًا من العلم لم يقنعه إلا أن يكون على ذروة السنام، ويضرب بالمعلى من السهام، فقد هديت لضالتك، وفتح الطريق إلى بغيتك، وهي لك الأداة التي بها تبلغ، وأوتيت الآلة التي معها تصل) .

ثم يوجهه لما يسعى إليه ويقصده قال : (فخذ لنفسك بالتي هي أملًا ليديك، وأعود بالحظ عليك) .

ولا يتركه عند هذا الحد بعد أن بان له الصواب بل يعقد له موازنة تظهر له عمق الفارق بين الحالة التي كان عليها والتي وصل إليها حتى يعلم انه كان في ضلال بعيد ويتيقن بقوة الدليل وصحيح العقل ما وصل إليه قال : (ووازن بين حالك الآن وقد تنبهت من رقدتك، وأفقت من غفلتك، وصرت تعلم إذا أنت خضت في أمر اللفظ والنظم معنى ما تذكر، وتعلم كيف تورد وتصدر، وبينها وأنت من أمرها في عمياء، وخابط خبط عشواء. قصاراك أن تكرر ألفاظًا لا تعرف لشيء منها تفسيرًا، وضروب كلام للبلغاء إن سئلت عن أغراضهم فيها لم تستطع، تبيينًا، فإنك تراك تطيل التعجب من غفلتك، وتكثر الاعتذار إلى عقلك من الذي كنت عليه طول مدتك) .

أورد الإمام عبد القاهر أخبارًا وروايات تنص على تذوق الرسول – صلى الله عليه وسلم – للشعر وإدراكه لجيده من رديئه كما أشار في أثناء ذلك إلى بعض مقاييس استحسان النبي للشعر وأسباب كرهه لبعضه ونهيه عن بعضه .

موقف النبي –صلى الله عليه وسلم– من الشعر كما عرضه عبد القاهر .

تناول الإمام عبد القاهر موقف الرسول –صلى الله عليه وسلم– من الشعر والأحاديث التي نهى فيها عنه ، وما كرهه – وما أمر به منه وما أعجبه وما مدحه ، وما استنشده ، وما ردده وما يعلم منه .

وذلك في إطار الرد على من ذم الشعر على إطلاقه لما ورد عن الرسول– صلى الله عليه وسلم– من ذم لبعضه أو كراهة لبعض ، ولكون القرآن نفى تعليم الرسول –صلى الله عليه وسلم– الشعر .

كما رد على طائفة أخرى ذمت الشعر لما فيه من إقامة الوزن والقافية وما يتضمنه من نغم قد يشغل عما هو أولى منه .

ورد على الذين يذمون الشعر متخذين من بعض أحاديث النبي–صلى الله عليه وسلم– حجة دون الوقوف على غايتها ومقصدها وخصوصها مع تركهم لأحاديث أخرى أمر فيها بقول الشعر وشجع عليه .

قال : (فلو كنت ممن ينصف كان في بعض ذلك ما يغير هذا الرأي منك، وما يحدوك على رواية الشعر وطلبه. ويمنعك أن تعيبه أو تعيب به. ولكنك أبيت إلا ظنًا سبق إليك، وإلا بادئ رأي عن لك، فأقفلت عليه قلبك، وسددت عما سواه سمعك. فعي الناصح بك، وعسر على الصديق والخليط تنبيهك. نعم وكيف رويت: « لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا » [(١)] ولهجت له، وتركت قوله صلى الله عليه وسلم: " إنَّ مِنَ الشِّعرِ لحِكمًا وإنَّ مِنَ البيانِ لسحرًا "[(٢)]

---

(١) سنن أبي داود (أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني) باب ما جاء في الشعر الحديث رقم (٥٠١١) الناشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت .

(٢) المستدرك على الصحيحين (محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري) باب ذكر عمرو بن الأهتم – رضي الله عنه – الحديث(٦٥٦٩) تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا / الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠ الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت .

. وكيف نسيت أمره صلى الله عليه وسلم بقول الشعر ووعده عليه الجنة، وقوله لحسان " قل وروح القدس معك [1] وسماعه له، واستنشاده إياه وعلمه –صلى الله عليه وسلم–! به، واستحسانه له، وارتياحه عند سماعه؟) .

ومن الملاحظ في رد الإمام هذا أنه حرك ضمير المخاطب نحو الإنصاف من نفسه ثم وضع بين عينيه سبب خطئه ليصوبه ويبصر به موضعه الذي حدده له بوضع الأحاديث التي تمدح الشعر بإزاء التي ورد فيها ذمه حتى تعتدل النظرة لديه ويوازن بين الكلامين ؛ فيتنبه إلى أن الحكم لا يتعلق بعموم الشعر وإنما يتعلق بأبيات مخصوصة أو قصائد بعينها .

وقد ساق الدليل على ما ساق من رأي النبي – صلى الله عليه وسلم – في الشعر من أمره به أو نهيه عن بعضه أو استحسان أو استهجان ليكون الكلام بالدليل فيكون أوقع في نفس الخصم ، وأهدى في نفس الضال عن عين الحقيقة قال : (أما أمره به فمن المعلوم ضرورة، وكذلك سماعه إياه، فقد كان حسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير يمدحونه، ويسمع منهم ويصغي إليهم، ويأمرهم بالرد على المشركين فيقولون في ذلك، ويعرضون عليه. وكان عليه السلام يذكر لهم بعض ذلك ... وأما ما كرهه من قول الشعر ونهى عن إنشاده عنده فما كان فيه مخالفة شرعية كالفحش والزور والذم وذكر لعيوب الناس؛ فهو من الزور الذي لا يشهده –صلى الله عليه وسلم– قال الإمام عن هذا (ومن المحفوظ في ذلك حديث محمد بن مسلمة الأنصاري، جمعه وابن أبي حدرد الأسلمي الطريق، قال: فتذاكرنا الشكر والمعروف. قال: فقال محمد: كنا يومًا عند النبي صلى الله عليه

(١) سنن النسائي الكبرى (أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي) تحقيق : د. عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن/ الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩١/ الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت .

وسلم فقال لحسان بن ثابت: " أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية، فإن الله – تعالى– قد وضع عنا آثامها في شعرها وروايته " : فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة...فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسك هذا! فقال: يا رسول الله، تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " يا حسان أشكر الناس للناس، أشكرهم لله تعالى. وإن قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عني فتناول مني وفي خبر آخر فشعث مني وإنه سأل هذا عني فأحسن القول " فشكره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك.(١)

وروي من وجه آخر أن حسان قال: يا رسول الله من نالتك يده وجب علينا شكره .

ومن المعروف في ذلك خبر عائشة رضوان الله عليها أنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يقول: " أبياتك " فأقول، من الكامل:

إِرْفَعْ ضَعِيفكَ لا يحرْ بكَ ضُغفُهُ ... يومًا فتدرِكَه العواقبُ قد نَمَا

يَجزِيك أو يُثْني عليك وإنّ مَنْ ... أثنَى عليكَ بما فَعلتَ فقد جَزَى قالت: فيقول عليه السلام: " يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده: صنع إليك عبدي معروفًا فهل شكرته عليه؟ فيقول: يا رب علمت أنه منك فشكرتك عليه، قال: فيقول الله عز وجل: لم تشكرني إذ لم تشكر من أجريته على يده " .(٢)

كما ذكر علمه –صلى الله عليه وسلم– بالشعر قال الإمام عبد القاهر : (وأما علمه عليه السلام بالشعر فكما روي أن سودة أنشدت: عدي وتيم تبتغي من

(١) تاريخ دمشق المؤلف : ابن عساكر / ج ٤١/ ص:١٤٨/ الطبعة: الاولى ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م/ دار الفكر – بيروت – لبنان .

(٢) شعب الإيمان (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي) فصل في المكافأة بالصنائع – الحديث (٣١٣٩) تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول / الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت.

تحالف فظنت عائشة وحفصة رضي الله عنهما أنها عرضت بهما، وجرى بينهن كلام في هذ المعنى. فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليهن وقال: " يا ويلكن! ليس في عديكن ولا تيمكن قيل هذا. وإنما قيل في عدي تميم وتيم تميم ..." (١)

وخلاصة رؤية الإمام عبد القاهر لنظرة النبي – صلى الله عليه وسلم – للشعر تتركز في نقاط :

لم يذم النبي – صلى الله عليه وسلم الشعر لما فيه من إقامة الوزن .

الشعر كلام كغيره حسنه حسن وقبيح قبيح .

شجع الرسول – – صلى الله عليه وسلم – على استخدام الشعر كسلاح للدفاع عن الإسلام ، ووسيلة لنشر الدعوة .

مدح الشعر الذي يدعو إلى الفضيلة ويحث على محاسن الأخلاق .

نهى عن كل شعر يدعو إلى رذيلة أو يتضمن ذكر عيوب الناس وانتقاصهم .

بدا من خلال عرض الإمام لوجهة النظر النبوية في الشعر رقي ذوق النبي – صلى الله عليه وسلم – الفني وإدراكه للفروق بين طبقاته ، وعلمه به .

ومن الجدير بالذكر أن علم الرسول – صلى الله عليه وسلم بالشعر – الذي نص عليه الإمام عبد القاهر على ما ورد في الأحاديث التي استشهد بها لا يتعارض مع ما ورد في قوله – تعالى (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ...) (يس ٦٩) لأن المقصود في الآية كما – ذكر ابن عاشور : أن (المعنى: نحن علمناه القرآن وما علمناه الشعر، فالقرآن موحى إليه بتعليم من الله والذي أوحى به إليه ليس بشعر، وإذن فالمعنى: أن القرآن ليس من الشعر في

(١) دلائل الإعجاز ص: ١١ : ٢٨ .

شيء، فكانت هاته الجملة ردا على قولهم: هو شاعر على طريقة الكناية لأنها انتقال من اللازم إلى الملزوم.

ودل على أن هذا هو المقصود من قوله: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ} قوله عقبة {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} ، أي ليس الذي علمناه إياه إلا ذكرا وقرآنا وما هو بشعر. والتعليم هنا بمعنى الوحي، أي وما أوحينا إليه الشعر فقد أطلق التعليم على الوحي في قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} [النجم: ٤، ٥] وقال {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} [النساء: ١١٣].(١)

والمتأمل لما نقل الإمام عبد القاهر من موقف الرسول – صلى الله عليه وسلم– من الشعر يجد أنه حصر أوجه الذم للشعر في عدة محاور ثم فنَّد كل وجه منها بالدليل والبرهان كعادته في معالجة القضايا الخلافية وإقناع المخالفين :

(١) التحرير والتحبير / ج ٢٢ / ص ٢٦٢ .

المحور الأول : ذم الشعر لما يتضمنه من فحش وسوء خلق .

المحور الثاني : ذم الشعر لما يتضمنه من إقامة الوزن والقافية وما ينتج عنهما من موسيقى داخلية وخارجية .

المحور الثالث: ذم الشعر لاعتبار يرجع إلى الشاعر .

وقد رد على المحاور الثلاثة ردودًا مقنعة بالدليل العقلي والنقلي المدعوم بأكثر من نوع من البراهين التي تؤكده وتقويه كعادته في تحقيق المسائل .

المبحث الثاني
وقفات مع الأحاديث النبوية التي تناولها
الإمام عبد القاهر

يرى الإمام عبد القاهر أن البيان النبوي منبع الحكمة ومصدر الفوائد التي يقصدها البلغاء ويستنبطها العقلاء ؛ لأنها قامت على الصدق وسعت إلى الحق خلال تقلب أصحابها في مدارج الحياة بنظرهم الثاقب وقلوبهم اليقظة وفطنتهم في فهم دقائق الأمور والقضايا الكلية فيما يحيط بهم.

قال في معرض حديثه عن السرقات وأنواعها : (اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق واقتدى بمن تقدم وسبق لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحًا أو في صيغة تتعلق بالعبارة ويجب أن نتكلم أولا على المعاني وهي تنقسم أولا قسمين عقلي وتخييلي وكل واحد منهما يتنوع فالذي هو العقلي على أنواع أولها عقلي صحيح مجراه في الشعر والكتابة والبيان والخطابة مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء والفوائد التي تثيرها الحكماء ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعا من أحاديث النبي وكلام الصحابة رضي الله عنهم ومنقولًا من آثار السلف الذين شأنهم الصدق وقصدهم الحق أو ترى له أصلا في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء). [1]

وقد وقف على طائفة من كلام النبي-ﷺ – عند عرضه لألوان البديع ومناقشة بعض قضاياه من جهة الاستخدام الأمثل لفنونه والنموذج الرائد في ذلك من كلام النبي -ﷺ – الذي جمع محاسن الكلام ورونق البديع العجيب حيث جاء

(١) أسرار البلاغة ص : ١٣ .

مطبوعًا لا تكلف فيه مهما كثر فمتى وقع في بيانه -ﷺ- وقع بطلب من المعنى مع دقة في النسق تصقلها رفعة الذوق .

قال بعد أن ذكر شروط الجلال والكمال في استخدام ألوان البديع : (وإن أنتَ تتبِّعته من الأثر وكلام النبي -ﷺ- تَثِقْ كلَّ الثقة بوجودك له على الصِّفة التي قَدمتُ، وذلك كقول النبي ﷺ: " الظُّلْم ظُلُماتٌ يوم القيامة " [1] ، وقوله- ﷺ- : " لا تزالُ أُمَّتِي بخيرٍ ما لم ترَ الغنى مَغْنَمًا، والصدقةَ مَغْرَمًا " [2]، وقولهﷺ: " يا أيُّهَا الناس؛ أَفْشُوا السلام، وأَطْعِمُوا الطعام، وصِلُواْ الأرحامَ، وصَلُّوا باللِيلِ، والناسُ نِيامٌ، تدخلُوا الجنَّةَ بِسَلامٍ "[3] فأنت لا تجد في جميع ما ذكرتُ لفظًا اجتُلِب من أجل السجع، وتُرك له ما هو أحقُّ بالمعنى منه وأبرُّ به، وأهدَى إلى مَذْهبه). [4]

فمن الجناس في قوله (الظُّلْم ظُلُماتٌ يوم القيامة) إلى الجناس والسجع والطباق في قوله : (لا تزالُ أُمَّتِي بخيرٍ ما لم ترَ الغنى مَغْنَمًا، والصدقةَ مَغْرَمًا ") إلى السجع والجناس والإرصاد وألوان أخرى في قوله (أَفْشُوا السلام، وأَطْعِمُوا الطعام، وصِلُواْ الأرحامَ، وصَلُّوا باللِيلِ، والناسُ نِيامٌ، تدخلُوا الجنَّةَ بِسَلامٍ) وهو في

(١) صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري) المحقق : محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر : دار طوق النجاة / الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ .

(٢) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (علي بن حسام الدين المتقي الهندي) باب : الأشراط الصغرى (٣٩٥٩٠) الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٩ م .

(٣) سنن ابن ماجه (محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني) باب ما جاء في اطعام الطعام / الحديث (١٣٣٤) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / الناشر : دار الفكر – بيروت .

(٤) أسرار البلاغة / ١٢ .

هذا وذاك ، وما بينهما وفي كل نسق نبوي لم يفارق الطبع قيد أنملة مع توفير مزايا الجلال والجمال في التعبير الفريد .

كما ذكر المذهب الكلامي وهو في الاصطلاح أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية تصح نسبتها إلى علم الكلام إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة ،ومنه قوله تعالى (لَو كَانَ فيهِمَا آلِهَةٌ إلا الله لفَسَدَتَا) (الأنبياء ٢٢) هذا دليل قاطع على وحدانيته جل جلاله وتمام الدليل أن تقول لكنهما لم تفسدا فليس فيهما آلهة غير الله ، ومنه قول الرسول – صلى الله عليه وسلم : (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا (١)(٢) وتمام الدليل– على ما ذكر في سابقه– أن يقال لم تضحكوا قليلا ولم تبكوا كثيرا فأنتم لم تعلموا ما أعلم .

ولما كان غرض الإمام عبد القاهر الجرجاني التركيز على إبراز وجه إعجاز القرآن الكريم والوجه الذي يكون من جهته هذا الإعجاز فلم يتجه إلى البلاغة النبوية إلا بقدر ما يسهم في تحقيق هذا الهدف حتى لا يخرج عن مقصده الأساسي .

ففي تحقيق الفرق بين التشبيه والاستعارة يقرر إمكانية التباس المعاني وخفاء الوجه الذي يمكن من جهته معرفة المراد حتى أنه قد يلتبس على بعض أهل المعرفة .

---

(١) السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي) باب الخطبة بعد صلاة الخسوف – الحديث (٦٥٨٦) الناشر : مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد/ الطبعة : الطبعة : الأولى . ١٣٤٤ هـ .

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب / المؤلف : تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري/ ١/ ٣٦٤ / تحقيق : عصام شعيتو/ الطبعة الأولى، ١٩٨٧/ دار ومكتبة الهلال – بيروت .

قال : (ولذلك تجد الشيء يلتبس منه حتى على أهل المعرفة كما روى أن عدى ابن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط في قوله تعالى (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ) (البقرة ١٨٧) وحمله على ظاهره فقد روى أنه قال لما نزلت هذه الآية أخذت عقالا أسود وعقالا أبيض فوضعتهما تحت وسادتي فنظرت فلم أتبين فذكرت ذلك النبيَ وسلم فقال إن وسادك لطويل عريض إنما هو الليل والنهار) .[١]

ثم يستشهد بكلام للرسول – صلى الله عليه وسلم – ليؤكد عمق المعنى الذي يحتاج إلى تدبر في فهمه حتى يصل إلى وجهه الدقيق الذي يكشف أبعاد المعنى قال : (ومما لا يكون الشبه فيه إلا عقليا قولنا في أصحاب رسول الله ملح الأنام ، وهو مأخوذ من قوله-: عليه السلام- (مَثَلُ أَصْحَابي كَمَثَلِ المَلْحِ في الطَّعَامِ لا يَصْلُحُ الطَّعَامُ إلا بِالمَلحِ . قالوا : فكان الحسن – رحمة الله عليه – يقول فقد ذهب ملحنا فكيف نصنع. [٢]

(١) أسرار البلاغة : ٣٢١ .

(٢) مصنف عبد الرزاق (أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني) باب : أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – الحديث (٢٠٣٧٧) / تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي / الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت / الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ .

فأنت تعلم أن لا وجه ههنا للتشبيه إلا من طريق الصورة العقلية وهو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوسا وينطوي هذا التشبيه على وجوب موالاة الصحابة –رضي الله عنهم– وان تمزج محبتهم بالقلوب والأرواح كما يمزج الملح بالطعام فباتحاده به ومداخلته لأجزائه يطيب طعمه وتذهب عنه وخامته ويصير نافعا مغذيا كذلك بمحبة الصحابة –رضي الله عنهم –تصلح الاعتقادات وتنتفي عنها الأوصاف المذمومة وتطيب وتغذو القلوب وتنمى حياتها وتحفظ صحتها وسلامتها وتقيها الزيغ والضلال والشك والشبهة والحيرة وأما حكمة في حال القلب من حيث العقل فحكم الفساد الذي) .[1]

ويكشف الإمام عبد القاهر عن عمق التشبيه النبوي والذي قد يفهم من ظاهره أنه من المحسوسات لاعتماد إدراك أثر الملح في الطعام على الذوق لكن المعنى الذي يقرره هو أن امتزاج محبة الصحابة بقلوب الناس وتأثرهم بهم ومتابعتهم التي هي لازم المحبة تصلح قلوبهم وأحوالهم وهو ما يضمن اعتدال وسلامة المجتمع على الصورة المطلوبة كما يحقق امتزاج الملح بالطعام قبوله لدى الذوق وتحقيق الفائدة المرجوة منه وهو مفهوم من جهة العقل .

كما أبدى الإمام إعجابه بالفرائد والأمثال النبوية التي بلغت ذروة البلاغة البشرية على غير مثال سابق في النسق العربي قال : (ومن العجيب في هذا ما روي عن أمير المؤمنين علي –رضوان الله عليه– أنه قال: ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وسمعتها من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسمعته يقول: "

(١) أسرار البلاغة ص: ٦٠ .

مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ " وما سمعتها من عربي قبله [1] لا شبهة في أن وصف اللفظ بالعربي في مثل هذا يكون في معنى الوصف بأنه فصيح. وإذا كان الأمر كذلك فانظر هل يقع في وهم متوهم أن يكون – رضي الله عنه– قد جعلها عربية من أجل ألفاظها؟ وإذا نظرت لم تشك في ذلك) .[2]

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني) حديث عبد الله بن عتيك – الحديث : (١٦٤٦١) الناشر : مؤسسة قرطبة – القاهرة .

(٢) دلائل الإعجاز ص: ٤٠٤ .

الخاتمة

الحمد لله وكفى وصلاة وسلامًا على نبيه وآله ، وعباده الذين أصفى .

وبعد ،،،

فقد طاف البحث في تراث الإمام عبد القاهر ملتمسًا فرائده في البحث والتحليل للشواهد التي تناولها من القرآن الكريم والسنة النبوية ومظاهر البلاغة المعجزة في القرآن الكريم، وأسباب صدارة البلاغة النبوية للأساليب البشرية .

وقد تبين خلال الدراسة للبلاغة القرآنية والبلاغة النبوية ومنهج الإمام عبد القاهر فيهما ما يلي :

١- اعتمد الإمام عبد القاهر الجرجاني في تناول الشواهد القرآنية على طريقة دقيقة متكاملة تعتمد على دمج الجانب الديني بالجانب العقلي .

٢-ركز في استدعاء الشاهد القرآني على ما يحتاجه منه دون استنفاذ للجهد طلبًا لكل ما يستطيع أن يستخرج من البلاغة القرآنية .

٣-من مميزات طريقة الإمام عبد القاهر في التحليل والشرح والحجاج أنه يدعم الشاهد بشاهد أو أكثر تأكيدًا وتقويةً وزيادة في اليقين الذي يترك خصمه مقرًا ومواليًا ، وهو ما سار عليه في الاستشهاد بالقرآن الكريم حيث كان يتبع الآية بأخرى في سياق النظرية نفسها وللغاية نفسها حتى يعالج التردد في نفس الخصم عن النتائج التي يقررها ، وهو ما جعل المقبلين على مؤلفاته المؤيدين لآرائه في تزايد مستمر في كل عصر من العصور ومصر من الأمصار .

٤-من الملاحظ في كم الشواهد التي استخدمها الإمام قلة الشواهد القرآنية التي وردت في تحليلاته بالقياس على استخدامه للشواهد الشعرية نظرًا لكونه بصدد بيان وجوه إعجاز القرآن فكان يستشهد بالشعر والنثر أكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم .

٥-في تعامل الإمام مع الآيات القرآنية لا يعمد إلى مقدمات طويلة أو معان جانبية بل يتجه مباشرة إلى الغرض من الاستشهاد ، فيبدأ بتحليل موضع الاستشهاد وما يتصل به من دلالات قريبة وظلال بعيدة ويلفت انتباه القارئ في أثناء ذلك إلى ما يمكن أن يغمض عليه .

٦-من الأمور المميزة في تحليله للشاهد أنه لا يقطع الصلة بالمستمع بل يظل حريصًا على استمرار الحالة الحوارية التي لا تعطي فرصة لشرود الذهن أو جنوح الخيال بعيدًا عن أصل المسألة .

وفي أثناء ذلك لا يمل تكرار دعوة المتلقي للتأمل ودقة النظر وإعادته في المسألة حتى يصل إلى اليقين ، وهذا أمر يفيده الدارس والقارئ لتراث الإمام عبد القاهر فهو يدعوه دائمًا للصبر والتدقيق وإعادة النظر حتى يتيقن المسألة .

٧-مما يميز طريقته في المناقشة أنه يضع نفسه مكان مستمعه ويفترض مسائل تتعلق بالقضية موضع الحوار ثم يجيب عنها، وهو بذلك يروي ظمأ المستمع ويجيب عما يدور بخلده ، وقد كان موفقًا إلى حد كبير في هذا الجانب .

٨-ومن مميزات الإمام في التحليل أنه يعيد فك الكلام وتركيبه بطرق مغايرة للنسق المعجز في القرآن الكريم؛ فيعرض لما يمكن نسجه من أنساق تتفاوت في تركيبها وصياغتها حتى يتملاها عقل المتلقي وقلبه؛ فيدرك بنفسه الفارق الكبير والهوة السحيقة بين النسقين ؛ فيرجع شكه في قيمة النظم يقينًا، وتردده في القطع بفضله ثباتًا .

والمتأمل لتعامل الإمام عبد القاهر مع الشواهد النبوية وتحليله لها وكيف يراها يدرك ما يلي :

أولًا : يرى الإمام أن البيان النبوي منبع الحكمة ، ومقصد البلغاء والحكماء يأخذون من معينه البلاغي والبياني بقدر ما أُخذ من معينه الشرعي والروحي والديني والثقافي والاجتماعي .

ثانيًا : استعان بالشواهد النبوية بالقدر الذي يخدم الفكرة فجاء استشهاده بالحديث النبوي في المرتبة الثالثة من حيث كم الاستشهاد بعد الشعر والقرآن الكريم نظرًا لطبيعة الموضوعات التي كان يحتج لها في قضية إعجاز القرآن وفي قضية النظم وغيرها من القضايا التي أثارها ، أو عالجها في كتابيه .

ثالثًا : أبرز مظاهر الجلال والجمال في المواطن التي استشهد بها مع تركيزه على تحقيق غرضه الأساسي الذي هو بصدد تقريره بحيث لا يسترسل في كل جماليات الحديث النبوي لأنه يعلم أن الموضوع سيتسع ويخرج به عن نطاق مغزاه .

رابعًا: وظَّف تحليله لهذه الشواهد لخدمة غرضه الأساسي في القضايا التي عرض لها دون التركيز على كل ما تضمنته الشواهد النبوية من مظاهر الجلال والجمال .

خامسًا : بدا خلال تحليله كثير من مظاهر التفوق الأسلوبي للحديث النبوي كدقة اختيار أدوات الصورة وعمق المعنى في وجه الشبه واتساع الدلالة التي تتسع مع فكر متأملها ، وهو ما لا يتوفر إلا في طبقة الكلام العالي والأنساق المتميزة لدى خاصة الفصحاء .

سادسًا : عرض بعبقرية لرؤية النبي – صلى الله عليه وسلم– للشعر وفند وجهات النظر المغلوطة في ذم الشعر استنادًا للفهم الخاطئ لما ورد من ذم مخصوص لبعضه أو في مواقف مخصوصة خرج فيها الشاعر إلى مكروه أو محرم .

سابعًا : رأى في استخدام النبي – صلى الله عليه وسلم– لألوان البديع النموذج الأمثل الذي تتحقق فيه شروط الفصاحة والبلاغة بين جمال اللفظ وجلال المعنى .

أخيرًا أحمد الله – تعالى– على ما وفق، وهدى، وأستغفره على ما وقع من خطأ، أو تقصير؛ فهذا عمل بشري يهفو إلى الكمال، وهو إلى النقصان أقرب ، والله ولي التوفيق، وصلي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم .

افهرس المراجع

- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني / ت : محمود محمد شاكر / الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م مطبعة المدني بالقاهرة .
- تاريخ دمشق المؤلف : ابن عساكر / الطبعة: الاولى ١٤١٩ – هـ – ١٩٩٨ م/ دار الفكر – بيروت – لبنان .
- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور (محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر : مؤسسة التاريخ العربي – بيروت – لبنان –الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م
- تفسير اللباب لابن عادل . (أبو حفص عمر بن على ابن عادل الدمشقي الحنبلي المتوفى بعد سنة ٨٨٠ هـ) / دار النشر / دار الكتب العلمية . بيروت .
- التوقيف على مهمات التعاريف / محمد عبد الرؤوف المناوي / ت : د. محمد رضوان الداية / دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ، دمشق / الطبعة الأولى –سنة ١٤١٠هـ .
- خزانة الأدب وغاية الأرب / المؤلف : تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري/تحقيق : عصام شعيتو/ الطبعة الأولى، ١٩٨٧/ دار ومكتبة الهلال – بيروت .
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر / ٧/ ت : محمود محمد شاكر / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م / مطبعة المدني بالقاهرة .

- سنن ابن ماجه (محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي/الناشر : دار الفكر – بيروت .
- سنن أبي داود (أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني) الناشر : دار الكتاب العربي . بيروت
- السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي) الناشر : مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد/ الطبعة : الطبعة : الأولى . ١٣٤٤ هـ .
- سنن النسائي الكبرى (أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي) تحقيق : د .عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن / الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩١.
- شعب الإيمان (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي) تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول / الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت .
- صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري) المحقق : محمد زهير بن ناصر الناصر / الناشر : دار طوق النجاة / الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ .
- علم البديع عند الإمام عبد القاهر بين النظرية والتطبيق – بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بأسيوط في الجزء الأول من العدد الثامن والعشرين سنة ١٤٢٩ هـ .

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ) الناشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت سنة: ١٤٠٧ هـ .
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية / تأليف: أبو البقاء أيوب ابن موسى الحسيني الكفومي/ ت: عدنان درويش – ومحمد المصري / دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (علي بن حسام الدين المتقي الهندي) الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٩ م .
- المستدرك على الصحيحين (محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري) تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا / الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠ الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل (أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني) الناشر : مؤسسة قرطبة – القاهرة .
- مصنف عبد الرزاق (أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني) تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي / الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت / الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ .
- معالم المنهج البلاغي عند الإمام عبد القاهر / د : محمد بركات حمدي أبو علي / طبعة دار الفكر– عمان .